الفصل الأول

الفكـرة

باكستان هي بلد مستقل ذو سيادة في جنوب آسيا يضُمّ ما يقرب من خمسة وتسعين مليوناً من البشر؛ ولقد ظهر للوجود عام ١٩٤٧م تحْقيقاً لِتَطَلُّعات دينيّة أو ثقافية. وكانت الفِكرة هي توفير وطن يضم مسلمي شبه القارة الهندية كلهم.. أو غالبيّتهم، وطن يستطيعون فيه أن يتطوّروا بِحُرّية بعد زوال حكم بريطانيا الامبريالي ـ الاستعماري ـ، ويُنَمُّوا حياتهم في جَوّ إسلامي مُنْفَصِلٍ عن الهندوس الذين كانوا يفوقونهم عدداً بنسبة ثلاثة لواحد.

ومن هذه الوُجْهة يمكن اعْتبار باكستان بلداً ـ غير عادي ـ وهذه حقيقة لا يُعيرها الغرْبُ الانتباه اللازم الذي تَسْتَحِقُّه؛ فقليلةٌ هي البلدان الأُخرى التي قامت تجسيداً لِفكرةٍ أو عقيدةٍ أو نظرية في عالمنا المعاصر...؛ بُلْدان تدين، بوجودها لـ «إيديولوجية» ... كما يسميها البعض، وأكثر الذين يُلقون نظرةً على أطلس (خريطة) العالم يصعب عليهم تمييز أكثر من بلدين مشابهين لباكستان.

ومن الواضح أن أحد البلدين هو روسيا السوفيتيّة وهي أكبر أو أكثر شهرة؛ فللعقيدة الماركسية ـ رغماً عن إلحادها ـ بعض صفات الدين، والماركسيّة مِثْل فكرة باكستان، تخلّلتْ أوساط المُتَعَلِّمين أوّلاً لفترةٍ من الزمن قَبْلَ أنْ تَجدَ لها تجسيداً عُضويًّا. وحتّى تاريخ الانهيار الفظيع للإمبراطورية القيصرية عام ١٩١٧، وهو الذي سمح للماركسية بفرصة الحياة وأعطاها تركيباً حكومياً قابلاً للعمل حتى الآن، كانت الماركسية فكرة تجريدية بدون دولة، كانت نَفَساً وحِبْراً وإثارة وأحاديث في غُرَفٍ منزوية يتبادلها رجال يتحرّقون حماسة للهدف...، ومُجَلَّدات ضَخْمةٍ، قَلَّمَا تُفتَحُ، في المكتبات العامّة. والاتحاد السوفيتي يُشكل المثل الأعلى للدولة الإيديولوجيّة ونظامه الاستبدادي يَجعَلُه أكثر بروزاً من الصين الشعبية التي تحتل مركزاً ثانوياً في هذا المجال؛ كذلك من الواضح أن الاتحاد السوفيتي هو أكثر بروزاً من الثيوقراطية ـ الدولة الدينية ـ البوذية القديمة في «التيبتْ» والتي أطاحَتْ بها الصين الحمراء، بلْ وأكثر بروزاً من الدول البابويّة في أيام أمجادها في العصر الوسيط، ومن الثيوقراطية اليسوعية في «باراغْواي» في القرن السابع عشر الميلادي، ومن إسبانيا الكتائبيّة فى الوقت الحاضر؛ وأكثر بروزاً كما سنرى، من

باكستان في وَضْعِها الحالي أو فيما تريد أن تكون.

أمّا المثل الثاني في القرن العشرين فهو إسرائيل! وهي تافهة الحجم بالنسبة لروسيا، إلا أنها ليست كذلك على صعيد الحماسة. فبَعْد عشرةِ أشْهُر من قيام باكستان، سَنَحَتْ للصهيونية الفرصة لتُصْبِح القوة المُوَجِّهَة لدولة مستقلّةٍ ذات سيادة، وذلك بسبب ضَعْف إمبراطورية قديمة هي الإمبراطورية البريطانية بَعْدَ الحرب العالمية الثانية. وهناك نقاط شَبَهٍ أخرى بين الدولتين، فإسرائيل، مثل باكستان تعتبر نفسها مُعَرَّضَةً دائماً للخَطَرِ، وتعيش في خوفٍ دائم من اجتياح تقوم به دولة أو دُوَلٌ مجاورة معادية كبيرة. وهذا الوضْع النَّفْسي يدفع إسرائيل، على الأقلّ في الوقت الحاضر ـ إلى مزيدٍ من التماسك. وَلِجَيش إسرائيل دولة تعطيه اعتباراً سامياً وتصرف عليه جزءاً كبيراً من ميزانيّتها. وإسرائيل دولة دائمة الانشغال بضمان بقائها حتّى إنّها لم تتدبّر أمرها في صياغة دستور مُدَوَّن؛ وهي دولة تضمّ عدداً كبيراً من اللاجئين النازحين والمتضرّرين ماديًّا ونفسيًّا، نتيجة طغيان ومظالم حدثت في مناطق أخرى من العالم، بالإضافة إلى ما بها، منذ البدْء، من صراع داخليّ شديد للسيطرة على مقاليد الأمور بين التقليديين والتقدّميين، ..بين الحاخامين والمجدّدِين، وهو صراع مُلْفِتٌ للمراقب الخارجي المحايد.

إلا أن.. باكستان وإسرائيل تفترقان في موضوع كبير، ففي الصهيونية أمور تختلف عن الروح الدينية والثقافية، وهي مُسْتَلْهَمَةٌ من فكرة عنصرية، ألا وهي اعتقادها بالشَعْب المختار، ومن هنا فهي تشبه، ويا للسخرية الكالحة، عدوتها المخفية السابقة في أوربا: النازية الألمانية. والإسلام، وهو العقيدة التي استمدت باكستان منها الفكرة، هو على النقيض من ذلك، فهو، مثل الشيوعية، عدوّ للعنصرية بدونِ أَيِّ تَحَفُّظ، فهو يؤكد بقوةٍ عالميّتَهُ، إنه أُخُوَّةٌ مفتوحة لجميع البَشَرِ وهذا يعني أن الإسلام بعَكْسِ اليهوديّة، احتمالات قائمة لِقوَّةٍ دَعَوِيَّة معنيّة بتوسيع آفاقها، كما توسع بصورة هائلة في القرون الماضية. وهنا تبرزُ حقيقة جديدة ذات أهميّة قصوى، حقيقة تُفسِّر كثيراً من العوائق الخاصة والتحامل الذي واجهته فكرة باكستان منذ بدْءِ ظهور نشاطها في الثلاثينات... ليس فقط من الهندوس بَلْ أيضاً ـ ولو بأسلوب أقلّ وعياً، من الشعوب المسيحيّة في الغرب، حَسْب تقديرات كاتب هذه السطور على الأقلّ.

والهندوس يَعُون تماماً سبب خوفهم من الإسلام، رغماً عن تفوّقهم العددي الهائل في

شِبْه القارّة. لقد وصل المسلمون بحراً ثم برًّا ليوقِعُوا بأجداد الهندوس الموهوبين سلسلةً من الهزائم الفاجعة منذ عام ٧١١م، وذلك عندما اقتحم أحد قوّاد خليفة المسلمين بلاد السِنْد؛ وما بين القرن الثاني عشر والقرن الثامن عشر. أي خلال حوالي ٥٥٠ عاماً. مارس الغزاةُ المسلمون نفوذاً مستمراً على أجزاء واسعة من (بَهاراتْ مَاتَا)... من أُمِّهِم المُقَدَّسة: الهند، من الأرض التي يحترمونها، ومن تُرابها الذي يُشكِّلُ جزءاً أساسيًّا من الديانة الهندوسية، والذي تجري فيه الأنهار المقدّسة الثلاثة[1]. ولقد سبَّبَ هذا العار جروحاً عميقة بقيت في أذهان الهنْدوس ونتج عَنْها عداء الهندوسية القاسي للإسلام، وتصميم الهندوسية الطويل الصبور على إخضاع الإسلام وابتلاعه أو طَرْدِه، ومقاومة الإسلام، بالمقابل لهذا العداء؛ وكان هذا الأمر الواضح أساس العَوائق التي واجهتها فِكرَةُ باكستان... وأساس قيامها فيما بعد، وسَبَبَ التقسيم الدامي لِشِبْهِ القارّةِ الهندية سنة ١٩٤٧م، والذي ذهب ضَحِيَتَه آنذاك حوالي نصف مليون قتيل، وهاجر بسببه أربعة عشر مليوناً من البشر. وسنَبْحَثُ هذه التفاصيل في الفصول المقبلة.

أمّا موقفُ الغَرْبيين، أوروبيين وأمريكان من الإسلام ـ وهو أمر مُلْفِتُ للنظر رغم عدم بروزِه ـ ... فَيَحْتاجُ أن نبحثه هنا الآن. فعدم اهْتِمام الغربيّين ببلد فريد مثل باكستان كثير السُكان، هَامٍّ الاستراتيجية، متحالفٍ معهم عسكرياً، بالإضافة لِتَكْرارِ أعراض الغربيين في الاشمِئْزازِ العاطفي الغامض من باكستان، وميلهم لدولٍ أخرى أقلّ أهميّة... كل ذلك يُشكل ـ إذا تَمَعَّنَّا فيه ـ أمراً غريباً، يستدْعي البحث والدراسة. وهناك من الأسباب ما يُثير الشك في أن الموقف الغَرْبيّ المناوئ لباكستان ينْبع من أصول دينيّةٍ أيضاً، ولو أن هذا السبب لا يفسِّر بمفرده ذلك الموقف المناوئ.

قبل قيام باكستان كان الإداريون البريطانيون يكرهون تَفكُّكَ الوحدة الإدارية لِشبه القارّة الهندية التي جهد سابقوهم كثيراً لِخَلْقِها. وفكرة تقسيم الجيش الهندي كانت محزنة للمدنيين والعسكريين على السواء. لقد خرج هذا الجيش من الحرب العالمية الثانية مُنتَصِراً، ساميَ التقدير، يُعتبر، عالميًّا، كقوّةٍ كبيرة قادرةٍ على دعم الاستقرار. ولم يكن في هذه الآراء أيّ عامل دينيّ إلاّ أنّها حَرَّكَتْ الكراهية لِفكرة باكستان في الأوساط البريطانية

(١) نهر الغَانْجيزْ ونهر الكوغِري ونهر الإندوس، ويضيف بعض الهندوس اثنين آخرين: نهر النَرْباذا ونهر الجوداڤيري.

الحاكمة، وثار الشك بل عدم الاقتناع ليس فقط بين الطبقة البريطانية الحاكمة بل بين الأجانب أيضاً، في إمكانية قيام واستمرار وحدةٍ سياسيّةٍ على أساس باكستان لأنّها ستَتَكوَّنُ من جزئين مختلفين من الهنْد يفصلهما ألف ميل، وفي حالة عدم استمرار مثل هذه الوحدة السياسية سيَقوم وضْعٌ سيءٌ من الاضطراب وعدم الاستقرار في شرق آسيا وعلى الغربيين المُنْهَكِين من الحرب أن يعالجوا هذا الموقف.

كذلك، بعد أن قامت باكستان، مال ذوو النفوذ مِنَ المُخْتَصِّين بشؤون شبه القارّة الهندية من قُدامى الإداريين ورجال الأعمال البريطانيين إلى السكوت. وأكثر الموظفّين الكبار الذين تقاعدوا بعد ذلك من عسكريين ومدنيّين، كانوا مُتْعَبين خائبين فلقد مَرّوا بظروفٍ قاسية، فالتقسيم والاضطرابات حطمت الفرضيات التي بنوا عليهما كُلَّ ما عملوه في حياتهم الوظيفية. بالإضافة إلى أن القوانين كانت تُقَيّدهم إلى حدٍّ ما؛ فربما كانت وظائفهم متوقِّفة على كتمانهم لمعلومات أو وثائق لازالت في حوزتهم ... «حسناً هذا هو الواقع» ، «لا فائدة من البكاء على الحليب الذي انسكب هدْراً»، «لِنَلْتَفِتَ إلى شأنٍ آخر» هذه أنماط من أقوالهم عَبَّرَتْ تماماً عن مشاعرهم آنذاك. وكان هناك رأي واسع الانتشار في أوْساطِ كِبارِ الرسميين تأثّرت به الصحافة أيضاً خلاصته إنه طالما أن بريطانيا قد تركت حُكْمَ شِبْهِ القارّة الهنديّة.. يجب عليها الامتناع عن إطْلاقِ التّعْليقات المثيرة..من بعيد.. التي قد تضعفُ سلطة من خلفها في الحكم هناك. وكانت هذه أسباباً وجيهة للصمت؛ ومع ذلك فقد تَقَوَّتْ بدَعْمٍ آخر ألا وهو مصلحة بريطانيا المدروسة والتي بطبيعتها معاكسة لباكستان ومن الواضح أنّ الدولة الهندية الجديدة،.... وهي الدولة الوريثة الأكبر، تحْتلُّ مكانةً تتعلّق بها مشاكل دولية كبرى: مشاكل الإيدلوجية الشيوعية، والحرب الباردة، ومشكلة التنافس بين الدول الخارجية التي لم تكن تهتم حتّى حين بشبه القارّة، من أجل الإستراتيجيّة والفرص التجارية والنفوذ الثقافي؛ وبالنسبة لبريطانيا كان الموضوع الدقيق هو المدى الذي ستسْتَمِرّ فيه في تشْغيل رؤوس أموالها هناك. وكان من الحصافة.. أن تتحاشى بريطانيا إثارة حكومة مثل هذا البلد. لم يكن لكُلِّ تلك الاعتبارات العملية علاقة بالدين ولكنها جميعاً لا تُفَسّرُ ـ برأي المؤلف ـ كراهية أكثر الغربيين لِفكرةِ باكستان. كذلك فإن الرجل العادي في الغرب، ليس السياسي البارز ولا الإداري ولا رجل الأعمال، بل الرجل الذي لا مَنْصِب خاصاً له، هو الذي يميل لِتَجاهُلِ آسيا... أو على الأقل تجاهل مناطقها البعيدة: وهذا ناتج

عن تحامل غربي في التربية المدرسية وفي الصحف والإذاعات التي «تُقَوْلبُ» أَفْكار البالغين. ويفترض هذا التوجيه المنحاز المتحامل ـ إن أوروبا وفرعها الغَنيَّ في أميركا الشمالية هما فقط المنطقتان الوحيدتان في العالم اللتان يجب أن تَسْتَحْوِذا على اهْتِمام الغربيّ. أمّا العالم الواسع غير المسيحيّ... فَيُهْمِلونه.

يُدرَّس الولدُ في صِغرِه شيئاً عن اليونان وروما وشيئاً بسيطاً عن المشرِق لتعريفه فقط بخَلفيّةِ المسيحيّة ولكن ليس بالقَدْرِ الكافي الذي يجعله يُدرك أن «يَسوع» كان «آسْيَوِيًّا» ؛ ثم يدفع التلميذ الغربي لِيَعْبُرَ بسرعةٍ العصور المظلمة المُشينة ليصل إلى العصْر الوسيط وثقافته المتميّزة التي نشأت في كنف الكنيسة وبِزَعامتها، .... ولكنْ لا يكاد يُسمح لهذا التلميذ بنظرةٍ عابرةٍ على ما كان يجري خارج أوروبا في تلك الحقْبة من الزمن.

ويتوسع الأساتذة في تدريس حركة الانبعاث والإصلاح الديني كذلك يُروى له بغزارة أكثر عن الاكشافات التّقنيّة الأوروبيّة المُدْهشة وعن التوسع الأوروبيّ عبْر البحار في القرون الأربعة الماضية وكل ذلك ليقود مُباشرةً إلى مركز الغرب البارز اليوم.. أو البارحة، دون أي اعْتبار لحقيقة أنّه خلال ألْفٍ على الأقل من الألْفيْ عام للتاريخ المسيحي الذي مرّ على أوروبا لم يكن شمال غربيّها المتطوّر الآنَ إلا مُلْحقاً تافهاً للكتلة الأرضية اليورو آسوية؛ غارقاً في فوضى الجَهْل بالمقارنة مع الحضارة التي قامت في الشرْق... في آسيا.

فالامبراطوريات الهندوكية والبوذية والكونفوشيوسية ـ هنا نصل أخيراً للعامل الديني المحجوب ـ كانت فعلاً بعيدة عن أوروبا؛ بعيدةً لدرجة يمكن معها أن نَعْذُرَ جَهْل الغربيّين بها. ولكن بعض الامبراطوريات المسلمة كانت أقرب من تلك الممالك للغرب، وحصل بين الأخيرة ـ الامبراطوريات المسلمة ـ والغرب احتكاك مباشر. ولَعَلَّ هذا التذكُّر الجزئي الصعب، في أذهان الغربيّين، لِتِلْكَ الممالك الإسلامية، والصفات العالية التي تمتّعت بها على الصعيدين الديني والعسكري والدعوة العقيدية التي أَلْهَمت تلك الصفات العالية... لَعَلَّ كل ذلك هو أساس مَيْلِ الغربي إلى تجاهل إيديولوجيّة مثل باكستان عندما يُثار موضوعها أمامه، مُشيحاً بوجهه جانباً شاعراً بِغُرْبَةٍ وعدم ارتياح. وهنا النقطة الهامّة على كل حال، برأي المؤلف والتي تستحقّ النظر فيها في الفصل الأول من هذا الكتاب.

لِنَفْرِضْ أن أحد الغربيّين العاديّين الذي لم يسبق له التجول في الشرق، يصل إلى اسطَنْبولَ أشْهَرِ مدينةٍ في أقرب بلدٍ مسلم لأوروبا، وعندما يستقلّ سيارة «التاكْسي» مُتّجهاً

إلى الفندق يُشاهد مَدْهُوشاً من خلال الجو الصافي لتلك الأمسية الأفق المكسوّ بالقباب والمآذن الجذّابة يعلوها الهلال الرمزي. ويصدم هذا المنظر عيونه وفكره بعُنْف؛ إذْ يتذكّر أن بعض هذه الأبنية قامت على آثار كنائس نَصْرانية، وكُلما تطلع هذا الغربي حوله تزداد أفكاره اضطراباً فالذكريات كئيبة عن حكايات شِبْه مسموعة لانتشار الإسلام بالسيف! بين الجاليات النصرانية في المشرق خلال أوّل انطلاق للإسلام من شبه جزيرة العرب قبل ألف وثلاثمئة سنة، ثم حكايات لاحقة أكْثر مَغْزىً عن اسْطَنْبول نفسها عن القبائل القويّة الشكيمة من غير النصارى ـ من الأتراك الآن وليس من العرب ـ التي اجتاحت سهول المَجَر ووصلت بوابات فينّا؛ ويَتَطَلَّعُ الغربيّ باتجاه الغرب ـ نحو مناطق قريبة من موطنه ـ ليتذكر قصصاً عن سَبْيِ النساء والأرزاق... الذي مارسه قراصِنَةُ وعبيد البَرْبَرْ على الشواطئ الجنوبية لأوروبا... الشواطئ الغنيّة بتاريخ الإغريق والرومان، ثم حكايات غزو مسلمي الشمال الإفريقي لإسبانيا.

ويَنْسى الغربيُّ هنا... ـ على افتراض معرفته ـ حضارة المسلمين في الأندلس وتفوّقَها على منافِسَتِها الحضارة النصرانية المعاصرة لها في الشمال. يَنْسَى فَنّها الرائع وغنى وجاذبية هندسة بنائها، وأنّها أوّل من بدأ بِتقنيَّة الحمّامات والهندسة الصحية وتنوير الشوارع العامّة والسمعة الممتازة لجامعه قرطبة بل والدور الرئيس الهام الذي لعبه علماء المسلمين في حوض البحر المتوسط كَحَفَظَةٍ للتراث الإغريقي وكقُوّةٍ دافعةٍ لحركة الانبعاث الأوروبي فيما بعد.

يتناسى الغَرْبيّ كل ذلك ولا يستحوذُ على ذاكِرَتِهِ إلا فكرة واحدة هي حقيقة الاحتلال العسكري لأوروبا، الذي قامت به قوى غريبة.. مشركة... كافرة! ثم يعود بذهْنه لأسْطَنْبول لِيُحَمْلِقَ مرّةً أخرى في تماوج الأفق الذي تحدّه الأبنية الغريبة التي لم يألف نماذجها الهندسية إذ يقارنها بما تعوّد رؤيته من نماذج بنائه اليوناني فيستعير لذاكرته الانهيار المفجع ـ في تقديره ـ للإمبراطورية البيزنطية قبل خمسمئة سنة أمام القوى الإسلامية الغازية، وإذا ما تعمق في التذكّر الأوروبي المشترك الذي لا يزال يَقْطُرُ ألماً حتى الآن ربما يُفكّر بالآمال العراض والفروسيّة والإيمان أوّلاً ثم النهاية المخيّبة المشينة للحروب الصليبيّة.

ورغماً عن أن أيّة محاولة لتحليل هذه الذكريات ستكون أمراً غير معقول فمن شِبْهِ

المؤكد أن أفكاراً كهذه تُشوّه ـ وتحرف ـ موقف الغربي من الإسلام وبالتالي موقف الغربيين من الدولة المهمّة التي نحن بصددها.. (باكستان) في هذا الكتاب. ولكنْ مِنَ الغريب ـ وهنا نصل للملاحظة غير المتوقعة للوجه الآخر للوسام ـ أن الباكستانيين أنفسهم ينظرون إلى هذه الأمور بمِنْظارٍ مختلف تماماً جغرافيًّا وتاريخيًّا؛ إنهم يَرَوْن هذه الأمور بعين صديق لا عَيْنَ عَدُوّ ـ وهذا هو الاكتشاف الكبير الذي سيصل إليه المسافر الغربي العادي المتجه شرقاً إذا لم تكن محطّة سفره الأولى أستنبول أو القاهرة مثلاً بَلْ (كراتشي) أوْ (لاهور) أوْ (دلهي) أوْ (دكا) ـ ويكون حينذاك دخوله للعالم الشرقي ليس عَبْرَ بوّابة صلبة المصاريع في جدار الإسلام التاريخي الفاصل بين الإمبراطورية الإسلامية وبين الإمبراطورية المسيحية في منطقة البحر المتوسط، بل عن طريق باب جانبيّ ـ إذا جاز التعْبير ـ وهنا لا توجد أي ذكرى خاصة لأي صراع عقدي أو تناقض بين الإسلام والمسيحية رغماً عن احتمال وجود رَوَاسب نفور سياسي عند المثقفين من المواقف المتغطْرسة للاستعمار البريطاني الحديث. فمسلمو هذه المنطقة ـ حتى غير المتعلمين فيهم ـ يعون تماماً، على الصعيد الديني، ـ ووَقْفَتُهُم في صلاتهم تُذكِّرهم بذلك؛ إن تطلعهم هو إلى الغرب منهم ـ ويقصد الكاتب بذلك الكعبة المشرفة ـ والإسلام في جنوب آسيا يواجه وينافس بارتباك عقائد وثقافات في شرقه غريبة عنه وعن الروح الغربية بصورة عامّة لدرجة أن الخلاف الحاد بين الإسلام والمسيحية يصبح أحياناً بالمقارنة هامشيًّا بلْ تضْمَحِلُّ شقّة الخلاف هذه تقريباً. ففي هذه المنطقة يواجه الإسلام باستمرار جداراً من عدم الفهم لعقيدته في المساواة المطلقة بين البشر دون تمييز طبقي أو عرقي وتَمسُّكه بوحْدانيّة الإله الواحد بالمقارنة لنظام الطبقات الهندوسيِّ ومضاعفاتِه وحواجزه الاجتماعيّة التي تمنع التزاوج والاختلاط بين جميع طَبَقاتِ الناس، والاعتقاد الهندوسيِّ بتعَدُّدِ الآلهة ونفور المسلمين وغثيانُهم من عِبادةِ الأصنام التي يُمارسُها الهنْدوس.

وعلى الرغم من أن الزائر الغربي الجديد يرى الناس كلهم من حوله سُمْرَ البَشَرة سواء كانوا هندوساً أو مسلمين إلا أنّه يتحقّق بسرعةٍ بعد ذلك أن بعض المسلمين يتعاملون معه.. كابْنِ عمٍّ قريب جدًّا لهم على الأقلِ إن لم يَعْتَبروه أخاً في العقيدة. وبالمقارنة مع الهندوس والبوذيين والسيخ واليانيين بَلْ والبارسيّين، من الواضح أن للمسيحي مكانة وعلاقة خاصَّتيْن في نظر المسلمين. فهو باعْتبارِهم ليس.. من عَبَدَةِ الأوثان. وهو يُشاركهم ـ ولو أنّه

لم يعلم ذلك بعد ـ كثيراً من مقدّساتهم التي لم يَنْسَخْها كتابُهُم المقدس ـ القرآن الكريم .؛ وقد يعجب الزائر الغربي الجديد حين يعلم أن مؤسِّس المسيحية هو أحد أنبياء الإسلام الكبار والقُدْس بالنسبة للمسلمين أيضاً أرض مُقدّسة. لذا قد يسأل المسلم الباكستاني المثقف: أيّة ديانة أخرى لها هذه القُربي من المسيحية؟ هل يحترم اليهود عيسى المسيح؟ وكل شخصيات «العهد القديم» آدم وحواء وسليمان الملك وملكة سَبَأُ ونوح وإسماعيل.. تَشْتَرِكُ الديانتان المسيحية والإسلام في الإيمان بهم واحترامهم. وبعض الأسماء التي تُدْعَى «مسيحية» هي أيضاً أسماء إسلامية: إبراهيم وموسى وداوود ويعقوب وإسحاق يُمْكن تحويلها لِلَفظِها الإنكليزي.. بسهولة جدًّا. والواقع أن المسيحي بالنسبة لبعض المسلمين لَيْسَ أَبْعَدَ عَنْهم من بَعض من يدّعون الإسلام كطوائف القرن التاسع عشر من القاديانيين أو الأحمديين على الأصح، في البنجاب.

كذلك على الزائر الغربي الجديد ألاّ يفترض أن المسلمين حوله في جنوب آسيا ـ أو الشرق الأوسط ـ هم أقلُّ أهميّةً من مسلمي الشرق الأدنى الأقرب لأوروبا وهنا يكمن سوء التصوّر الناتج ـ جزئيًّا ـ عن الغَطْرَسَة الصاخبة للقوميّة العربية التي تعالج الأمور الشرقية بأقلام أُناس يفترضون أن أهميّة بلد ما تزداد كلما ازداد موقعه الجغرافي قُرْباً من واشنْطُن أو لنْدنْ أوْ باريس. ولكن مسلمي الهند وباكستان وإيران وأفغانستان وإندونيسيا لا ينظرون لخريطة العالم من هذه الزاوية فالموضوع في أذْهانهم عَكْسَ ذلك إذْ نُقْطة البدء بالنِسْبَةِ إليهم هي منطقة جنوب أوْ وَسَط أوْ جَنوب شرق آسيا.. فكثافة عدد المسلمين هناك حقيقة ذات وزن، تدعم وجهة نظرهم تلك. فَمَجْموعُ تَعْدادِ المسلمين في تلك المناطق: الهند وباكستان وإيران وأفغانستان وبورما والصين وتايلند وسيلان وبورنيو وأندونيسيا ـ وماليزيا ـ الخ لا يقل عن ٢٨٠ مليوناً. وبمقابل هذا العدد قد يكشف الغربي مندهشاً أن المنطقة الأكثر ذيوعاً للعالم الإسلامي وهي في حَوْض البحر المتوسط ـ عَرَباً أو أَتْراكاً ـ وتشتمِلُ على يوغوسلافيا وألْبانيا وتركيّاً وسوريا ولبنان والأردن و العراق ودول الخليج والسعوديّة واليمن ومصر ودول المغرب الأربعة في شمال إفريقية ليبيا وتونس والجزائر ومراكش، لا يَتَعدَّى مجموعُ سكّانها مجتمعة ألْـ (١٠٧) ملايين نَسَمة[١].

---

(١) هذا إحصاء عام ١٩٥٩م ولا يضم دول إفريقيا الوسطى غير المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط مثل السودان ونيجيريا وتشاد.. إلخ.

ومسلمو شبه القارة الهندية يستَقْرِئون التاريخ ويولونَه اعْتِباراً أكثر مِمّا يوليه البريطانيون الذين لم يَخْضَعُوا لِحُكْمِ أجنبي، لذا يعتبرون إنجازاتهم السابقة في (دلهي) أيّام السلطان قطب الدين وحكم المماليك و(الخِلْجِيْ) و(التُوغْلاقْ) والأسياد و(الودهي) و(السور) والتي بلغَتْ أوجها الرائع في القَرْنين السادس والسابع عشر في الإمبراطورية المغولية... هذه الإنجازات كلها هي بِالنِسْبَةِ لمسلمي شبه القارّة الهندية مساويةٌ على الأقل ـ إن لم تكن أكثر من ذلك ـ في ليبراليّتها وعَظَمَتِها للحُكْم العثماني الأقْرب لأوروبا وهذا الأمر يقود بصورة طبيعية، الباكِسْتانيّ إلى شَبَهٍ آخر عندما يُقارن نفْسَهُ بالغربي بخاصة البريطاني. ورغم أن الباكستاني ربما يكره بَعْضَ أعراض الحكم الانكليزي التي عانى منها أو سمع عنها إلا أنه مع ذلك يرى في البريطاني تقارباً في الإدارة المدنيّة والاستعداد العسكري؛ بل وينظر الباكستاني إلى البريطاني الآن، بعد زوال الحكم الاستعماري نظرة اهتمام حيوي وودّي.

وصحيح أيضاً أن الحكم البريطاني للهند كان أقصر من حكم المسلمين لها؛ كانت مُدّتُه مئتي عام بينما دام حكم المسلمين ثلاثة أضعاف ذلك وكان أثر الأخير على المسرح الهندي في الفن والمعمار والهندسة والدين والناس بعامّة أكْبر بكثير من تأثير الحكم البريطاني. كان الغربيّون «رُحّلاً» دائماً إذْ كان الإداريون والتجّار البريطانيون يعيشون حياةً مؤقّتةً، دائمي التنقّل من مكان إلى آخر وما أن يبلغوا سن الكهولة حتّى يتقاعدوا مُنْسَحِبين عائدين إلى جزيرتهم الصغيرة البعيدة؛ أمّا النساء البريطانيات اللواتي انْتَقَلْن عبْرَ قناةِ السويس بحراً... وأخيراً جوًّا بالطائرات فكُنَّ يعْكسْن بصورةٍ أكبر صورة الانفصام والسرابيّة.. الانفصام الذِهْني والماديّ على ما بدا. فقليلات مِنْهُنَّ أظْهَرْنَ أي إحساس بالانتماء لشِبْه القارة الهنْدية. وباسْتثناء وقائع قليلة جِدًّا لم يستوطن البريطانيون في الهند ولا اخْتلطوا مع سكّان شبه القارة بصورة حميمة لا على الصعيد الشخصي ولا الثقافي ولا... التزاوج كما فعلَ الغزاةُ المسلمون.

ومع ذلك فجدود المسلم كجدودِ الغَرْبيّين: بريطانيين وبرتغاليين وفرنسيّين، جاؤوا الهند كغزاةٍ من الغَرْب وحكموا، مثلهم بنجاح، ولمدّة من الزمن هنادكة أذْكياء مُثَقّفين أقوياء الشكيمة يفوقونهم بأعدادٍ كثيرة. لذلك هناك شعور برابطة الزمالة القويّة بين الغربيّ ومُسلِمِ شِبْهِ القارّة الهندية.

والمسلم في جنوب آسيا، إذن، يعي تماماً أن منابعه الدينية والثقافية بالتأكيد بل وربّما

العرقيّة أيضاً هي غربية بالنسبة لشبه القارّة. لذا فالمسلم هناك ـ بِعَكْسِ الهنْدوسي ـ الذي تشدُّه الطقوس القديمة والتقاليد لأرض ومياه أمّه الهند المقدسة، يشعر باهتمام أصيل بالبلاد التي تقع في غرب شبة القارة.. البلاد التي نشأت فيها ديانتُه... أو على الأقل لا يَشْعُرُ بالغُربة أو الحياد تجاهها. وإذا كانت الجغرافيا تُجْبِرُ المسلم هناك على الاحتكاك بالثقافات المختلفة تماماً عن ثقافته وبخاصّة الهندوسية التي تفترق كليًّا عن الإسلام حتّى في دقائق الأمور الحياتية، كما سنوضِّحُ ذلك لاحقاً، فإنّه ـ أي المسلم ـ يعي الصلة التي تربطه بالعالم غير الهنْدي: ليس فقط بالعالم العربيّ وتركيّا بل بأوروبّا أيضاً.

والمواطن العادي الغربي، وهو الأورُوبيّ... المُنْعَزِل فليس لديه أية فكرةٍ عن مدى بُعْدِ الشّقة بين الهندوسية والإسلام، ولا عن مُسبِّباتِ هذا البُعْد ولا عن السبب في مَيلِ المسلم الباكستاني أو الهندي إلى الصداقة مع الغرب؛ ولا يعرف الغرْبيّ العادي كلَّ ذلك إلا عندما يزور بنفسه شبه القارة الهندية وعندما يُصاب بالحَرَجِ والضيق من ضحالة معلوماته.

وقد يُلاحظ بعض المسلمين حرج هذا الغربي ويسألونه بأدب عن سبب هذا الجهل الشديد عند الغربيين بأبْسَطِ الحقائق الآسيوية؟ ألمْ يَزالوا خاضعين دون تبصُّر لِسُلطةِ الكنيسةِ القديمة؟ هل تَجْرفهم، دون وعْي، المخاوف التي أثارها الرهبان والقُسُس قبل قرون عديدة عن قدْرةِ الإسلام التوسُّعيّة؟ أو لم تزل الذكريات عن بعض الحقائق التاريخيّة المُرّة قابعة في زوايا الذهْن الأوروبي كأحداث عام ٧٣٢م عندما غزا فاتِحو إسبانيا الأراضي الفرنسيَّة، بقيادة عبد الرحمن، وجاوزوا (بواتييهْ) ووصلوا مُنْتَصَفَ فرنسا ولم يبعدوا عن القنال الانكليزية.. آنذاك سوى (٢٠٠) ميل.

رُبّما وجد المواطن الغَرْبيّ العاديّ صعوبات في محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة ومع بُعْدِ الشقّة بين الإسلام والهندوسيّة هناك شيء ـ قد يكون فريداً في نوعه ـ يمكن وصفه بثقافة مشتركة بينهما كانت موجودة إبان الحكم البريطاني بل وربّما كانت أكثر وضوحاً في القرنين السادس والسابع عشر خلال الحكم المغولي في عهد (أكبر) و(شاه جيهان). وحتى نكون منصفين في هذه النقطة يجب التأكيد عليها: لقد تعايشت الديانتان الإسلام والهِنْدوسية بسلام جنباً إلى جَنْبٍ لمدّة طويلةٍ دون أيّ عداء وكانت المودّة متبادلة بينهما بعض الأحيان. ولقد عرف (أكبر) أن أيّ عداء يقوم بين أتباع إمبراطوريّته يعْني عدم الاستقرار السياسيّ، لذلك وصل إلى حدّ محاولته جَمْعَ الديانتين في دين واحد من ابتكاره سمّاه:

«الدين الإلهي» . ورغم أن المحاولة قد أُجْهِضَتْ فلقد حصلت تبادلات هامّة بين الديانتين وسعى الحكام المغول للزواج من أميراتٍ هندوسيات واهْتمَّ بعضهم بدراسة الفلسفة الهندوسية ورعوا الشِعْر الهندوسي والرسم الهندوسي ولم يكتفوا باستعارة بعض الفن المعماري الهندوسي بل مزجوا بأسلوبٍ رائع الفنَّ المِعْماريّ الإسلامي بالفن المعماري الهندوسي. وتطورت الديانة الهندوسية «عند السيخ» الذين اعتقدوا بإله واحد وتركوا عبادة الأصنام والتماثيل واستنكروا نظام الطوائف والطبقات بينما استجاب المسلمون على أرض الهند بترك بعض «الطابع العربي الزاهد» للإسلام وتقرّبوا إلى الله من خلال فلسفة التصوّف واشْتَطَّ البعض مِنْهم حتّى وصلوا إلى حَدِّ ممارسة شعائر غير إسلامية مثل العبادة على أضرِحَةِ «الأولياء» .

ونتجت هذه الأعمال ـ جزئيًّا ـ عن الوضع الجغرافي، فلقد كانت المواصلات في الهند قبل أواسط القرن التاسع عشر صعبةً وبطيئة؛ وعاش المسلمون هناك منعزلين ـ نسبيًّا ـ عن مهبط الوحي والمصدر الأوّل لرسالتهم في شِبْه جزيرة العرب المختلفة عن الهند، إلى الغرب منهم. وتكاد شبه القارة الهندية تُشكل ـ إلى حدٍّ ما ـ وحدة عضوية مستقلّة تَفْصِلُها جبال الهملايا الشاهقة ومياه المحيط المتلاطمة عن بقيّة أجزاء آسيا. وربما كان من المستغرب حقًّا ألا تُؤدّي هذه الوحدة الجغرافية بالإضافة لمحاولات الإداريين التوحيديّة مدّة ستمئة سنة، إلى إقامة امتزاج نهائي كامل ـ بين المسلمين والهندوس. إلا أن أمرهم يشبه وضع الماء والزيت، لقد عاش الجميع لمدّة طويلة متجاورين متسامحين ـ أو على الأقل غير متخاصمين ـ يحكم طرف منهما الطرف الآخر إلا أنّهم لم يمتزجوا فلقد كان لكل طرف منهما أوْضاَع.. مُتباينة مُنْفَصلة. وكان هذا الأمر واضحاً لدرجة أن أحد مشاهير أهل الشرع الإسلامي ذكر ـ في العشرينات من هذا القرن ـ وبعد ثمانية قرون من قيام التناظُر بين الطرفين ما يلي بالحرف:

«إنّ أيّ مسلم منا نحن أبناء شبة القارّة الهندية يشعر عندما يُسافر أنه في بلده وبين أهله عندما يكون في أفغانستان أوْ إيران أو آسيا الوسطى أوْ تركيا أوْ البلاد العربية إلا أنه يشعر بالغربة الكاملة في كل الأمور الاجتماعية هنا في بلده عندما يقطع الشارع ويدخل أحياء الهندوس[1]». وهناك بعض المسلمين الذين يعبِّرون عن هذا التباين الواقع بأسلوب أشد

(١) السير عبد الرحيم الذي تسلّم منصب رئيس المجلس التشريعي في الهند.

فيقولون إن الانقسام بين الفئتين هو من العمقِ والاتساع بحيث لا يجدي فيه إلا «التحْطيم» وإن الاستقرار في شبه القارة غير ممكن إلى أن يأتي نظام ثالث قادر على كسب ولاء الطرفين على السواء. قبلَ قرن من الزمان ربما ظن أحد مُتَبَجّحِي الاستعماريين الغربيين مثل (مِريدِنْ تَونْزانْدْ) أن المسيحية القويّة تستطيع أن تكون هذا النظام الثالث ـ أي البديل المناسب ـ؛ أمّا مستعمرو اليوم، وهم من نمط جديد فيشيرون إلى أن الشيوعية هي الحل البديل.

على أنه يجب الإقرار أن لدى مثقّفي الغرب من الدبلوماسيين والمفكّرين ـ بخاصّة اليساريين واللادينيين ـ بعْضَ الأسباب التي تجعلهم ينظرون إلى الإسلام وبالتالي إلى فكرة باكستان بعين الاستنكار وعدم الرِضَى. فبِالنسْبةِ لهؤلاء فكرة باكستان هي رجعيّة ضيّقة الأفق مشدودة إلى الماضي؛ وافتراضهم هذا ناتج جزئيًّا عن طبيعة التشريع الإسلامي المتميّز الشامل لكل مناحي الحياة وهذه المناحي بالنسبة للغربي يجب أن تكون علمانية بعيدة عن الدين.

ولا يمكن التركيز في هذا الكتاب على هذه المسائل المعقدّة. والقوانين في أوروبا وأميركا جاءت من مصادر رومانية وليس من مصادر مسيحية، وأكثرها، برأي الغربي، لا علاقة لها بالدين لا في مصادرها ولا في أهدافها. وهناك دائرتان متميّزتان قائمتان في الغرب يسهل التعرف عليهما عادةً بدون صعوبة تُذكر: الدولة والكنيسة. إلا أنّ الأمر مختلف في الدول الإسلامية، بخاصة قبل أن «تتغرَّب» هذه الدول إلى حدٍّ ما بتأثير الضغوط الاستعمارية فتفصل قوانين الأحوال الشخصية عن القوانين العامّة للدولة، حينذاك كان التشريع كأي أمر آخر جزء من الدين الإسلامي كما جاء في القرآن والسنة وكما فسّره العلماء والفقهاء لذا يعيش الناس كلهم في ظل شرع الله كما أنزل على النبي محمد ﷺ، ولذلك يمتد الإيمان إلى دقائق الحياة اليومية.

وليس الإسلام فريداً في هذا المنحى فرُبَّما لَمْ يَكُن هناك حاجة لقيام كُتَّاب مثل (كانْتْول سْمِيث) في التَّبسُّطِ المُطوّل عن هذا الموضوع. ولكن المثقف الغربي اليساريّ يميل إلى إفْراد الإسلام بذلك بسبب وجود بعض البنود الاجتماعية التي هي، في نظره، مدعاة للاعتراض وسنذكر ذلك في حينه. فالدين اليهودي يتدخّل هو أيضاً في دقائق الأمور الحياتية بما في ذلك السياسة بأسلوب يزعج الغربي، وزيارة واحدة لإسرائيل كافية لإثبات

ذلك. كذلك تفعل المسيحيّة البيزنطية ـ اليونانية ـ إلى حدٍّما، أيضاً، كما اطلع الرأي العام البريطاني على ذلك في قضيّةِ (قبرص). وإذا صنّفنا الشيوعية كدين فهي أيضاً تفعَلُ نفس الشيء بالتأكيد. وهذا عارض يختصُّ بالشرق ـ على ما يبدو .. إذ نجده في دين شرقي خالٍ من الدوغْمَا ـ العقائد الجازمة ـ وليس فيه نظامٌ متماسك كالبُوذية. ويُؤكد (ريغنْز ـ WRIGGINS) عندما يناقش القومية والدين في (سيلان) فيقول:

«ليس في البوذية تقليد لفصل الكنيسة عن الدولة كما قام في غرب أوروبا لتأكيد فكرة (مملكة قيصر) لتمييزها عن (مملكة الدين) فليس في آسيا عالمان منفصلان الدين والدولة بل هما متداخلان متمازجان ـ في عالم واحد..»

ويمكن بحث الموضوع من زاويةٍ أخرى بالرجوع إلى الأحداث التاريخية في أوروبا منذ القرن الخامس عشر الميلادي. لم يَمُر العالم الإسلامي بحركة إصلاح معاكسة له ولا كان فيه حركة نهضة وانبعاث كما جرى في أوروبا ولم يَقُمْ العالم الإسلامي بجهدٍ واعٍ لأقْلَمةِ نَفْسِهِ لحقائق العلم مثلما فعل العالم المسيحي آنذاك، ولم تحصل ارتجاجات سياسيّة قوية في العالم الإسلامي، كالثورة الفرنسية التي نتج عنها دعوة لِعَلْمَنَةِ الدولةِ في الغرب. لقد قام بعض المسلمين بمحاولةِ إصلاحية في تركيا ومصر والهند ومناطق أخرى إلا أن الإسلام بَقِي بصوره عامّة صامداً تماماً كما كان في بدء العهد العباسي بعد ١١٨ سنة فقط من وفاة النبي سنة ٦٣٢م. ثم هناك بُنُود اجتماعية تثير اعتراض الغربيين، كما ذكرنا آنفاً، منها موضوع تعدد الزوجات وعدم الاختلاط بين الجنْسين (وهذا الأخير ليس نَصًّا قرآنيًّا في الواقع) وسنبحثه في الفصل الثالث؛ والمسألة التي تُثار غالباً عن قطع يد السارق والتي هي عمليًّا غير مطبّقةٍ ولا يسمع عنها إلا نادراً في هذه الأيام في بلاد مثل أفغانستان والسعودية واليمن. حتّى كلمة الإسلام نفسها تُثير شكوكاً لدى بعض الغربيين لأنها تعني تسليماً بإرادة الله لذلك يظنّون أنها تُمهّد الطريق للرضى التواكلي للجماهير بحُكْم الفرد. وفوق كل ذلك فبالنِسْبَةِ لباكستان، استعمال كلمةٌ «إسلامية» مضافة إلى الدولة، على مدى السنين، تحمل معنى هائلاً في أذهان المفكرين. فكلمة مسلم تعني فقط إنساناً مؤمناً نَطَقَ بالشهادتين شهادة أنْ لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله؛ أمّا كلمة إسلامي فتعْني ضِمْناً أيضاً أن الإنسان بالإضافة لإيمانه وإطاعته للقرآن والسنة، يُطَبِّقُ الشريعة ويعمل بها وهي المجموعة الواسعة للتشريعات الدينية التي عُنِيَ بها العلماء والفقهاء وأصحاب المذاهب منذ ألفِ عامٍ أو يزيد.

ودستور باكستان لعام ١٩٦٢م الذي جاء به الحكم العسكري لا يحوي كلمة «إسلامية» فلقد أسقطت الكلمة عَمْداً تمشيًّا مع سياسة النظام الواقعية. إلا أن مقدمة دستور عام ١٩٥٦ والتي تذكر أن باكستان جمهورية «إسلامية» لازالت حيةً في أذهان الكثيرين من المنتقدين لباكستان. ولا يمكن الإنكار أن ثماني سنوات من الجدل بين المشايخ (المَلالي) ـ جمع مُلاّ ـ وبين «المُعَصِّرين» MODERNIZERS قبل إقرار أوّل دستور تم النص الرسمي فيه على «إسلامية» الدولة ـ مع أن انعكاس هذه الصفة على صعيد التطبيق كان ضعيفاً .، كل ذلك «أساء» لباكستان في مجال الدعاية العالمية. فلقد استمر كثير من الغربيين في تصوراتهم المبْهمة على أن باكستان بلد يحكمه رجال الدين الرجعيون بالفَتاوَى وينتظرون الفرصة السانحة لإعلان الجهاد ـ الحرب المقدسة ـ وهمهم الدائم هو فَرْضُ العقائد الجازمة الرجعية غير المُسْتساغة وإجبار غير المؤمنين على ابْتِلاعها.

والحقيقة أن كميّة (العقائد الجازمة DOGMA) في الإسلام قليلة نسبياً، أقل بكثير من العقائد الجازمة ـ الدوغما ـ في المسيحية فليس في الإسلام عقائد دوغمائية مُحيِّرة مثل عقيدة التَّثْليث التي يَصْعُبُ هضْمُها لمن يَشُكّ فيها. ولعل صورة باكستان في أذهان المثقفين اليساريين في الغرب كدولة دينية ـ ثيوقراطية ـ نتجت ـ إلى حدّ ما ـ عن الدعاية الواسعة لملاحظة أطلقها ذلك اليساري الملحدِ الإدْوارْدِيّ الطابع خريج (هارو) و(كمْبْردجْ)، رئيس وزراء الهند السيد (نِهْرُو) الذي كان أيضاً هندوسياً وَبْرَهْمَانيًّا. ولقد كانت الصلةُ وثيقةً بين اليساريين البريطانيين وحزب المؤتمر الهندي لأكثر من أربعين عاماً ـ وكانت في الغالب لصالح حزب المؤتمر ـ ولا توجد دولة مُسْلمة كبيرة أخرى غير باكستان تُسمّي نفسها «إسلامية» بهذه الأسلوب[1]: لا أندونيسيا وهي التي تحاكي باكستان بقوّتها العددية، أيّة دولةٍ أخرى ـ في أعين الغرب ـ من الدول المعروفة حول حوض البحر المتوسط. فتركيا ـ الحليفة العسكريّة لباكستان ـ سارت في طريق معاكسة تماماً في الواقع إذ غَلَّتْ يدَ الإسلام بِتَبَنِّيها لإصلاحات أتاتورك وألْغَتْ الخلافة وأبعدت العلماء والفقهاء عن مجال السياسة ومنعت كثيراً من التقاليد الإسلامية في حياة المسلمين كاستعمال الأبجدية

(١) باسْتثناء العراق التي أعلنت ذلك في دستورها المؤقت لعام ١٩٥٨. والإسلام طبعاً هو دين الدولة في كثير من البلدان ذات الغالبية المسلمة ولكن ذلك لا يحمل نفس الانعكاسات الدينية والعقدية التي يتضمنها وصف «إسلامية» عندما يُضاف لاسم الدولة، قد يكون التمييز بينهما دقيقاً ولكنه حقيقي.

العربيّة وأزالت حجاب المرأة وحَظرَت الطربوش وما يشابهه من غطاء الرأس وأعلنت نفسها بدون أيّ لبْسٍ أو إبْهام دولةً علمانية على النَمَطِ الغربيّ. فماذا نسْتنْتج من هذا التعارض؟.

الفارق بين باكستان وتركيا أقلّ بكثير مما يُظَنّ، وهذا رأي المؤلف ورأي من عاش في باكستان وهؤلاء يوافقون في الغالب على أن باكستان تخلو من أي عارض من عوارض عدم التسامح والتعصب والمجتمع الرجعي بل إنها.. غير قادرة حقًّا أنْ تُصْبحَ كذلك في الأحوال العادية وهذه حقيقة الآن مثلما كانت أيضاً في ظل دستور عام ١٩٥٦. فالبنية الخارجية للحياة غربيّة متحررة والزوّار الأجانب يلقون الترحاب والمودة ولا يسمعون عن العلماء والفقهاء إلا الشيء اليسير. والمُنَصّرون الغربيّون لا يواجهون المصاعب كالتي تَعْتَرِضُهم في دولة الهند التي أعلنت أنها «علمانية» . وخلال ستة عشر عاماً من عمر باكستان لم يكن هناك احتمال بوقوعها تحت سيطرة «الملالي» ـ العلماء ـ رغم نفوذ وحركيّة بَعْضِهم مثل مولانا المودودي[1]، ـ باسْتِثْناء فترة قصيرة خلال حكم الخواجا نظام الدين عندما قامت الاضطرابات في لاهور عام ١٩٥٣ ضد الحركة الأحمدية ـ القاديانية ـ.

ولقد ثبت بشكلٍ ملموس أن نفوذ علماء الدّين في باكستان هو أقل من نفوذ رجال الدين في الدولة الإيديولوجية الأخرى التي قامت عام ١٩٤٨ والتي ينظر إليها التقدميون الغربيون نظرة صداقة وعطف وهي «إسرائيل» ... ففي إسرائيل يفْرضُ الحاخامون نظاماً كئيباً نهار السَبْت ربّما كان أقسى ممّا حدث في اسكتلندا في عهد الملكة فكتوريا : فمنذ الغسق نهار الجمعة حتى مساء السبت تتوقّف أكثر وسائط النقل والمواصلات ويتوقف تفريغ وتحميل البواخر في الموانئ؛ وإذا مرّت سيارة في أحياء اليهود المتعصّبين يرشقونها بالحجارة، ومنَ المستَغْرب أنْ يحْتَمِلَ شعْبُ إسرائيل هذه الأوضاع وتِسْعُون بالمئة ٩٠٪ ملحدون ـ لا دينيّون ـ كما يؤكد (كُرُوسْمَانْ)؟. وبالمقابل لم تعْمَدْ باكستان[2]، ومنذ قيامها، لتغيير يوم عطلة الأسبوع ليصبح نهار الجمعة ـ بدل الأحد ـ، وهو يوم الصلاة الجامعة للمسلمين، مثلما هو الحال في أغلب الدول المسلمة، ففي باكستان تُغلق بعض المصارف أبوابها نهار

---

(١) المراجع الاختصاصية مثل (بايندِز) قسّمَتْ الملالي ـ العلماء ـ إلى قسمين: العلماء التقليديون وجماعة المودودي الجماعة الإسلامية والتي يُسمّيها (بايندر) فئة الأساسيين ـ أو الأصوليين ـ

(٢) حدث التغيير في أوائل السبعينات ـ بعد عدة سنوات من صدور هذا الكتاب ـ المعرب ـ

الجمعة ولكن المتاجر تُعَطِّلُ نهار الأحد، ولا تنقطع المواصلات في باكستان في أي يوم من أيام الأسبوع. ـ وفي إسرائيل أيضاً وليس في باكستان، مُنِعَتْ تربيةُ الخنازير بقانون، وكذلك تتهَدَّدُ التَعْليمَ الطبي هناك باستمرار صعوبات تخلُقُها المعارضة الدينية لتشريح جثث الموتى بقصْدِ الدراسة. لا يسمح القانون في إسرائيل بزواج اليهودي بغير اليهوديّة ومَنَعَ الحاخامون قيام الزواج المدني. والتشدّد في تطبيق التقاليد الدينية على اللحوم يجعل أكثر الغذاء في إسرائيل خالياً من اللحم.. ليس بسبب الفَقر، كما هو الحال في بَعْضِ مناطق باكستان، ولكن بسبب مَنْعِ اسْتِيراد اللحوم المذبوحة في الخارج إذَا لم تُرفق بشهادة تُثْبتُ ذَبْحَها حَسْبَ الطقوس الدينيّة اليهودية. ولا مثيل في باكستان لِمَا حدث في إسرائيل إذْ اخْتارت العِبْريّة لغةً رسمية ورفض اليهود لغة (اليِيدِّشْ) و(اللاينُو) كما رفضوا البدائل الحديثة كاللغة البولنديّة أوْ الألمانية أو الانكليزية أوْ العربيّة بَلْ فَضَّلوا أن يحصروا أفكارهم في قوالب التراكيب القديمة للعبْرية وهي لغة ميّتةٌ مُنْذ أكثر مِنْ ألْفَيْ سنة ولا تُسْتَعْمَلُ إلا في بعض الطقوس والشعائر الدينية. ولقد بدأ اليهود في إحْياءِ العبْرية منذ العشرينات من هذا القرن وأعادوا بها بمهارتهم بعض الحياة.

هناك نقطة بارزة أخرى يجب أن تُخفّف من شكوك المثقّفين الغربيين في فكرة باكستان، وعلى مدى تطورها، كانت عصريّة التوجّهِ ليس فقط في روحها العامّة بلْ في زعامتها أيضاً. فالرجال الأوائل الذي سعوا لعملية البعث الإسلامي قبل سبعين عاماً أوتزيد من قيام باكستان أمثال سيد أمير علي وسيد أحمد خان ومحمد إقبال كانوا كلهم مصلحين مجددين غير تقليديين في نظرتهم، لَمْ يَحْظُوا بِرضَى المشايخ ـ الملالي ـ، فإقبال الذي مات عام ١٩٣٨ كان مفكراً مغامراً خاصًّا. كُلّهم أرادوا التغْيير وعملوا بنشاط لإقصاء التقاليد البالية عن معتقدات المسلمين وبُنيَتِهم الاجتماعية وتحمَّسُوا لرَبْط أفكار المجتمع بالعلم الحديث. أمّا علماء الدين والذين يَظُنّ الأوروبيون والأمريكان أنهم هم الذين شجّعوا فكرة قيام باكستان فقد كانوا كلهم في الواقع من المعارضين ليس لأن الداعين لقيامها هم من المجدّدين بل على أساس أن التفكير الوطني ـ القومي ـ يُجزِئ وحدة العالم الإسلامي إلى دولٍ مختلفة وهذا يُناقض النظرية الإسلامية. والحقيقة أننا قد نجد في باكستان ـ إذا كان لنا تجربةٌ تُوَجِّهنا إلى أين وكيف ننْظُر ـ حاجزاً غريباً مثيراً: بين علماء الدين وبين المثقفين المتغرّبين من أغنياء الطبقة المتوسطة... حاجزاً قد لا نرى مثيله في أيّ بلد آخر من البلاد

الأفروآسيويّة المتخلّفة. وسبب ذلك اليومَ ليس هو في فقْدان المودّة المتبادلة بينهم بقَدْر ما هو استحالة الالتقاءِ بينَ تَرْبِيتَيْنِ مخْتَلفتَيْن. وهذا التفاوتُ غير الطبيعي، وهو نتيجة تغييرات مَدْرسيّة حَدَثَتْ في أواخر القرن التاسع عشر، يُفَسِّر كثيراً من واقع الحياة الوطنية في باكستان الذي يُحيّر كثيراً من المراقبين الغربيين وسأبحث ذلك بتفصيل في الفصل الثامن عشر.

ورغم شكوك المشايخ وعلماء الدين بالشخْصيّات المسلمة التي عملت طيلة سَبْعين عاماً في مجال الإحياء والتجديد في شبه القارة الهنديّة، فإن أكثرية هذه الشخصيات هم من المسلمين المُتَمَسِّكين بالدين. وقد لا ينطبق هذا الوصف تماماً على الشخص الذي أوجد دولة باكستان السيد جناح، الذي قد يُصَنِّفُه المؤرخون في المستقبل كنظير آسْيويّ (لِبِسْمارْكْ) أو (كافور)، إذ لم يُعِرْ اهْتِماماً كثيراً، في أغلب أيام حياته، للأمور الدينية التقليديّة بل ولقد قيل عنه مرّة إن آراءه لا تختلف كثيراً عن آراء أتاتورك. إلا أن أوضاع تركيّا في العشرينات من هذا القرن كانت تختلف كُليًّا عن أوْضاع الهنْد في الأربعينات من نفس القرن. والأمر الهام بالنسبة له ـ والذي استحوذ على كل وقته وجهده في السنوات الأخيرة لعمره وجَعَلهُ يُظْهِرُ طاقةً خارقةً من الإرادة والعزيمة، هو الحفاظ على ثقافة المجتمع المسلم في شبهِ القارّة أمام ما رآه من خَطَر الاختناق المتعاظم الذي يُثيره الهنادكة المجدّدون في ثقافةٍ وديانةٍ تختلفان في كل شيء مع المسلمين مُتخفّين ـ أي الهندوس ـ بنفاق لئيم وراء الرداء الظاهر لِعِلْمانيّة حِزْب المؤتمر ومتخذين صناديق الاقتراع سبيلهم للسيطرة. قال محمد علي جناح سنة ١٩٣٩م: «الديموقراطية في اعتقادي لا تعني هنا إلا قيام حكم الراجات الهندوسي في كل أنحاء الهند وهذا لن يقبل به المسلمون أبداً». وكان هذا موقف جناح الذي لم يتزحْزَحْ عنه حتّى وفاتِه. ولقد بنى سياسته على نظريّة الشعبين المختلفين. ولم تكن هذه من ابْتِكاره لأنّنا نستطيع تبيُّن أصولها في كتابات سيد أحمد خان قبل ستين عاماً إلا أن جناح نمّاها وطوَّرها وبَلْوَرها والنظرية تقول: إن مسلمي شِبه القارة يُشكّلون أمّة متميّزة عن الهندوس ولها الحق في أن تحكم نفسها بِنَفْسِها. فَبَعْد تفكّك الإمبراطورية البريطانية إثْر نهاية الحرب العالمية الثانية أصبح الوضع في الهند مشابهاً لما كان عليه الحال في أوروبّا بعد الحرب العالمية الأولى: فالتشيكوسلوفاك واليوغُوسلاف الذين كانوا جزءاً من الإمبراطورية النَمْسَويّة الهنغازية استقلوا في دولتين منفَصِلتَيْنِ: تشيكوسلوفاكيا

ويوغوسلافيا. وكان اقتراح قيام دولة باكستان نسيج عوامل ثقافية وسياسية واقْتصادية وتاريخية وليس بالضرورة عوامل دينيّة فقط ويُسبِّبُ هذا بلْبلةً... ليس فقط في أذْهان الأجانب بل في أذهان كثير من الباكستانيين أنفسهم عند نظَرِهم في طبيعة دولة باكستان.

كان السيد لياقة علي خان، أوّل رئيس لوزراء باكستان، أكثر تمسُّكاً بالشعائر الدينيّة من السيد محمد علي جناح ولكنّه كان عصريًّا ظاهراً. وهكذا كان أكثر زعماء السياسة البارزين منذ عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٥٨. يقول (كالارْدْ): لم تكن ثقافة الرجال الذين قادوا حملة إقامة باكستان ثقافة لاهوتية شرعية بالمعنى الإسلامي ـ بل سياسية مدنيّة عامّة؛ لم يكونوا من خرّيجي كليّة (دِيُوبَنْد) الإسلامية في شمال الهنْد بل خرّيجي جامعة كِمْبْرِدْجْ و(إنْزْ أُوفْ كُورْتْ) والفيلْدْمَارْشال ـ المشير ـ أيّوب خان رئيس الجمهورية منذ ثورة عام ١٩٥٨م يقيم الشعائر الدينيّة ويمكنه أن يتحدّث ـ مثل غيره منْ خريجي كليّة (سانْدهْرْسْتْ) العسكرية ـ إلى مواطنيه حديثاً جذّاباً عن الدين بتعابير عسكريَّة سهلة. ولكنّه، مثل العسكريين في كل مكان، لا يستعمل التجريد أسلوباً بل يُبقِي قَدَمَه ثابتة على أرضٍ صلْبةٍ. ولم يتردّد، وهو في سبيل التحْسين الاجتماعي، عن القيام بتغييرات عميقة في العادات التي كانت مرتبطة بالدين وذلك بِسَنِّ تشريعات بارزة للعائلة المسلمة في آذار ١٩٦١م فيها تقْييد لِتَعَدُّد الزَّوجات والطلاق. ومن المضحك الافتراض بأن رجال الحكم العسكري ـ حتى تاريخ رفع الأحكام العرفية عام ١٩٦٢ ـ كانوا من الذين يُصْغون إلى مقرّرات مَجالِسِ المُلاّ والمشايخ الرجعيين!! في الأمور التي تخصُّ الدولة.

إذْ كان رجال الإدارة هؤلاء من الواقعيين الذين اخْتيروا من صفوف موظفي السلك المدني ورجال الأعمال والمهنيين. وبِقَدْرِ ما يُقيّم التعميم في مثل هذه الأمور غير الملموسة، يمكن القول إن مواقف كبار المسؤولين العسكريين و المدنيين الذين مَكّنوا باكستان من اجتياز المخاطر التي هدّدَتْها في أوائل عُمْرهاُ، نقول إن مواقف هؤلاء لا تختلف بصورة عامة إلا قليلاً عن موقف أمثالهم من الغربيّين؛ يُصرِّح هؤلاء الباكستانيون الكبار قائلين: إن الدين أمرٌ رائع في مكانه.. ولكن من الضروري أن يَبْقى.. في مكانه.

وبَحْثُ موضوع صلة الدولة في باكستان بالإسلام يحتاج على كل حال إلى تغيير في مواقع الباحثين لنرى مثلاً كيف يبدو للناظر إليه من زاوية جنوب آسيا. لنتصوّر أن باكستانيًّا وطنياً أحْنَقَتْهُ شكوك المثقفين الأجانب فقام بهجمات معاكسة متحمِّسة فقد يسأل: أوَلَيس

في الغرب بلاد يختلط فيها الدين بالدولة؟: لنأخذ مثلاً انكلترا. هل يكون هذا الباكستاني مُخطِئاً إذا افْترض أن الذي ـ أو التي ـ يَسْتَلم رئاسة الدولة في انكلترا عليه ـ أو عليها ـ أن يَعِدَ قبْلَ تولّيه السلطة بصيانة طائفة مسيحية مُعَيّنةٍ هي الأنكليكانية ـ الإنجيلية ـ وبالمناسبة فإن من أسباب وجود هذه الطائفة ـ ونرجو ألا يكون هذا تجديفاً وقَذْفاً ـ تَعَدُّدُ زوجات الملك هنري الثامن؟ أوَلم يَكُنْ.. أيضاً.. تعيين كبار رجال هذه الطائفة ـ منذ قيامها إلى الآن... حتّى من قِبَلِ رئيس الدولة بَلْ مِن قِبَلِ السياسيّين المسؤولين والإداريين المدنيين، وقد يكون بينهم الآن، من ليس مسيحيًّا إنجيليًّا، بل ربَّما يهوديًّا أو مُلْحداً؟ ألا يُختار ستّةٌ وعشرون من كبار رجال الدين، الأنكليكان فقط، ليُشاركوا في السياسة وذلك بتَعْيينهم أعضاء في مجلس العموم؟ ألا يُوجد في بريطانيا تقليدٌ مضحك ـ ربّما كان الأمر مبالغة ـ على رئيس الدولة أن يُغيّر طائفته الدينية بعد اجتيازه لنهر يدعى (تْوِيدْ ـ Tweed) عندما يسافر شمالاً فَيُصبح عضواً في الكنيسة البْرِسبيتارية لإسْكُتْلَنْدَا؟ قد يعلن الباكستانيون بمرحٍ وبَشاشة أن الأمور في بلدهم لم تصل إلى هذا الحد. يجب أن يكون رئيس الدولة مسلماً، حَسْبَ الدستور، ويبدو هذا منطقياً، ولكنه لا يحتاج لتغيير اعتقاده الديني وطريقة عبادته عندما يُسافر من مكان إلى آخر في بلده؛ ولا يمانع الشيعة والإسماعيلية أو الأحمدية ـ القاديانية ـ في بقاء الرئيس مسلماً سنيًّا.. إذا بدأ سَفَرَه وهو مسلم سنّي. أَلا تُعطي أجهزة الإعلام في بريطانيا مكاناً بارزاً لآراء رجال الكنيسة ـ وهم الملالي في بريطانيا ـ من أساقفة وقساوسة؟ أليس من المفترض أن المكانة الدينية لهؤلاء السادة تجعل لآرائهم وزناً خاصاً في ميزان السياسة؟ لو زار بريطانيا أحدُ سكّان المريخ واستمع إلى برامج إذاعة لندن لَمَا كان مُخْطِئاً إذا افترض أن المسيحيين على هذا الكوكب ـ الأرض ـ ليسوا أقلية ـ وهم بالفعل كذلك ـ ولاسْتَنْتَجَ ـ وهو مُحِقٌّ في ذلك ـ أن المسيحيين بل الأنكليكان هم وحدهم الذين يعمرونها أغلب أيام السنة.

قد تساعد هذه التساؤلات المرحة اللاذعة في تقويم الفِكر الغربي. والتفسير الحقيقي لوضع باكستان الخاص ـ أي أنّها رغم كونها دولة إيديولوجية، عقيدية، لا يحكمها (الملالي) الرجعيون، وهي حقًّا منفتحة على التطور في العالم العَصْري مثل أي بلد آخر في آسيا ـ ... هو في علاقاتها بالهند. وهنا نعود لِلُبِّ الموضوع والحقيقة الرئيسة في الحياة الوطنية لباكستان: وهو خوفها الدائم، كما تراه هي، وكما أكّدْنا سابقاً، من اسْتنقاعِها في

محيط ضخم من ثقافة هندوسية مجاورةٍ مُعادية. قد يكون هناك باكستانيٌ متحمِّس وغير متدين أصلاً، فرغم نشوئه في بيئةٍ مسلمة إلاّ أنه لا يعتقد ولا يؤمن بالإسلام. وهناك القصّة المشهورة عن أحَدِ أغنياء دِلْهي من المسلمين الذي أَلْحَدَ في شبابه، والذي أعلن عام ١٩٤٩، وبعد مدّة من المجازر البشعة التي حدثت أيام التقسيم، أنه يَوَدُّ الهجرة إلى باكستان، مع عِلْمِهِ التام بالخسارة المادية الهائلة التي ستلحق به من جرّاء ذلك. وعندما سُئِلَ لماذا اتَّخَذَ هذا القرار قال: إنه لا يريد أن تكون لغته هندية سَنْسْكْرِيتيّه ويُفَضِّلُ اللغة الأردية ويُحِبّ أن يتمتّع بأكل لحم البقر. لقد أوضّح السيد جناح في إحدى مقابلاته الصحفية المشهورة مدى الاختلاف الثقافي بين المسلمين والهندوس بقوله:

«ليس الإسلام ديناً بالمعنى المتعارف عليه في الغرب فقط، بل هو نظام حياة واقعي يضْبطُ سلوكنا في كل ميادين النشاط الحياتي: في تاريخنا، وأبطالنا وفنوننا، وهندستنا المعماريّة، وقوانيننا، وموسيقانا، وتشريعاتنا، وفي كل هذه المجالات لا نَختلف اخْتلافاً أساسياً فقط عن الهندوس بل نتعارض تعارضاً جذريًّا في غالب الأحيان، فأسماؤنا وملابسنا وطعامنا ومعاملاتنا للنساء ونظرتُنا للحيوانات مختلفة عنهم، كذلك حياتنا الاقتصادية وأفكارنا في التربية ونحن نتحدّاهم وهم يتحَدُّوننا في كُلِّ نقطة من النِقاطِ المذكورة. لنأخذ مثلاً واحداً فقط نحن نأكل لحم البقر والهندوس يعْبُدون البقر. يَظُن الرجل الانكليزي أن هذا الأمر مسألة صوريّة فقط إلا أنّها ليست كذلك فمنذ أيام قليلة أثار موضوع البَقَر في هذه المدينة وَضْعاً استدعى تَدَخُّل قوّات الشرطة.»

لذا يجب ألاّ يُنْظَر إلى دولة باكستان باعْتبارها دولةً مناضلة تَسْعى لِنَشْر الإسلام وتجديد الغزوات ـ رغم وجود مثل هذا الميل الكامن في الإسلام ـ، بل يجب النظر لباكستان كدولةٍ تقف على أهبة الإستعداد للدفاع عن نفسها؛ ولقد أوجدت باكستان للحفاظ على قيم حضارية وثقافية لها أسمى المراتب في نفوس أغلبيّة السكان، ولِتُصْبِحَ ملْجأً يقصده كل إنسان يدين بتلك القيم في شبه القارّة الهندية. ويتساءل الباكستانيون: ألا يكفي موضوع التفاوت الكبير في عدد سكان الهند وباكستان لِيُفسِّرَ وَضْعَنا الدفاعي؟

قد يخاف الهندوس من الإسلام إذا تطلّعوا للماضي إلا أن لدى مسلمي باكستان اليوم أسباباً أكثر للتخوّف من الهنادكة فهناك ٣٨٠ مليون هندوسي و١٢٥ مليون مسلم فقط، في شبه القارة الهندية، وإذا أردنا التعبير عن ذلك بأسلوب آخر يمكننا القول إنَّ عدد سكان

باكستان من المسلمين هو ٨٣ مليوناً فقط أما الهند ففيها ٣٧٠ مليون هندوسي[١] وعلى هذا الأساس يقول الباكستانيون: كيف يمكن للهند أن تخاف من هجوم باكستاني عليها؟ لِنكُنْ مُخْلصين: أليس من حقِّ المسلمين أن يخافوا العَكْسَ ـ أي هجوماً هندياً ـ عليهم ـ؟.

وليس التَفَوّقُ العددي هو الميزة الوحيدة التي تتمتع بها الهند إذْ يمكن أن يُضاف إليها أمور هامّة أخرى كالقوة الصناعية والمالية، والتقدم التعليمي بالمقارنة لباكستان.

في بدء هذ الفَصْل وَصَفْنا باكستان بِقَوْلِنا إنها شيء غير عادي في عالم القرن العشرين، أي «دولة إيديولوجية» قامت على مشاعر دينيّةٍ وعقائديّة وقارنّاها بِرُوسيا الشيوعية وإسرائيل، والحقيقة أنها فعلاً دولةٌ عقائدية إلا أنّها أقلّ درجةً مِمّا كان يُقدَّر لها في الأصل وكُلّما ازداد تأثير النظرة العلمانية فيها كلما قلّ اختلافها عن بقية الدول الأخرى غير العقائدية في العالم. وهذا الأمر المتناقض يترك المعلقين الأجانب، وكثيراً من الباكستانيين معهم، في حيرةٍ وبَلْبَلَةٍ وارْتِباك. وهذا راجع جزئياً إلى أن الصراع هو فقط في «التعابير» و«التجريد» وترجمة الكلمات. فكلمة «شعب» (Nation) ليست سهلة التحديد.. حتّى باللغة الانكليزية كذلك كلمة «الدين» . وعندما تُنْقَلُ هذه التعابير من بيئةٍ غربيّة إلى محيط شرقي غير مُعْتاد على مفهومها الغربي، ويختلف كُليّا عن الغرب في خلفيّتِهِ التاريخية، تزداد الصعوبة. والشيء المهم هو: ماذا يشعر ويُفَكِّرُ الناس أنفسهم في باكستان؟

فإذا حكمنا بهذا المقياس يبدو ألاّ مجال للإنْكار بأنّ باكستان هي بالمعنى العلماني شعب مهما كانت مَرْتَبَةُ صِفَتِها الإيديولوجية، لأنّها بكل بساطة استطاعت العيش كشعب ولقد استطاعت العيش مدّة ١٧ عاماً، رغم الضغوط الهائلة والصعوبات، ضمن حدودها المرسومة مدعومة بالمشاعر القوية لَقادتها ومواطنيها في سبيل الحِفاظ على استقلالها. وتتراوح هذه المشاعر بين نَظرِيَتَيْنِ في أيّ من العامِلَيْنِ هو الأقوى في الجمع والوحدة «الوطنية ـ القومية» أو الإسلامية. وفي الفترة الحرجة ما بين عام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٧ عندما كان الحكم البريطاني يَحْتَضِر في الهند كان كثير من مسلمي شبة القارة ـ المتعلمين المتغرّبين منهم والعامّة ـ مرتبكين ذِهْنِيًّا بالنسبة لِمُسْتَقْبلهم. إنهم ينتمون ـ وهذا شيء معروف لديهم ـ لإحدى الحضارات الأساسية الأربع التي تقتسِمُ العالم: الإسلام والمسيحية والهندوسية (والبوذية والسيخية المتفرِعَيْن مِنْها)، والصّينيّة اليابانية المتميّزة في الشرق الأقصى. ولقد

(١) إحصاء عام ١٩٦١.

تحقّق المسلمون بشكل متزايد أن إمكانية تعايشهم السلمي مع الهندوس في شبه القارة الهندية في ظلّ حكم ديموقراطي مستقل ضعيفة جدًّا رغم أنّهم تعايشوا كذلك إلى حدٍّ ما في فترات متقطّعةٍ من حكم المغول وحكم البريطانيين؛ إلا أن أكثر المسلمين لم يكونوا في ذلك الوقت على استعداد لِهَضْم فكرة إقامة دولةٍ على النَمَطِ الغربيّ. إذْ لم تكن صغيرة تَقْتَصِرُ على مشاعر الولاء للقبيلة أو العائلة أو المقاطعة أو المشاركة اللغوية ولم تكن كبيرة إلى الحدّ الذي يَرْغبونه في أُخُوّةٍ إسلامية جامعة شاملة ليس لها حدود. لذلك بقيت باكستان لدى الكثير من المسلمين فكرة يَجِبُ التعوّد على قبولها.

ومن يستطيع لَوْمَهُم على هذه المشاعر؟ فالفكرة هجينة بالنسبة لهم في آسيا، مستوردة حديثاً من أوروبا؛ وولاء الآسيويين أوِ الأفارقة العاطفي لهذه الفكرة أمر غير أكيد. وفي العقود الأرْبَعَةِ أوْ الخَمْسَةِ الأخيرة حصلت في كل مكان تغييرات سياسيّة عميقة الأثر بأسلوب لم يسبق له مثيل. حتّى إن الغرب نفسه لم يتمكن من التأقلم المُرَتِّب للتغييرات الكاسحة. وكانت هذه الضغوط أشد في مناطق مثل شبه القارّة الهندية، فلقد واجه الناس هناك ـ المثقّفون والعامّة ـ تغييرات ما شهدوا مثلها في تاريخهم، أَدْخلت القرن العشرين بعُنْفٍ لمجتمعات لاتزال تعيش بعقلية القرن السابع عشر.

إلا أن المظاهر الحاضرة توحي بأن في باكستان مِثْل الدولتَيْنِ الأُخْرَيَيْن الإيديولوجيّتين اللتين ذُكِرَتا سابقاً، القومية أقوى من العقيدة، فتصفية ستالين لمُفَكِّري الثورة البلْشفيّة والسياسة التجريبيّة لخروتْشيف حَرّفتْ التجربة السوفيتيّة. فالعقيدة الماركسيّة ـ اللينينيّة لا تُطبَّق كما جاءت، والظاهر أن الحماس لِنَشْرِ الشيوعية في العالم بدأ يخفّ في نفوسهم؛ وخفّ العمل المكشوف للحرب والثورة، وصار الحديث عن التعايش السِّلْمي الأسلوب التعْبيريّ الجديد. وسُمِحَ للمشاعر الوطنية والقومية أن تُبْعَثَ من جديد وضاقت شُقّة الخلاف في أوْجُهٍ عدَّة بين الحياة اليومية في روسيا وغيرها من البلاد غير الشيوعية. كذلك في إسرائيل منذ حملة سيناء أو ما قبلها، ظهرت إشارات تدلّ على أنّ الحاخامين والتقليديين الرومانسيين يَخْسرون معركتهم مع المجدّدين والواقعيّين الذين يريدون مسايرة العالم العصري؛ فشباب (السابْرا) في المزارع الجماعية وهم أوائل من اهْتَمُّوا بقيام دولة إسرائيل يميلون اليوم إلى قَصْرِ موضوع إسرائيل على وطنيّة إسرائيلية فقط بعيدة عن الدين.

فهم يتجاهلون بل يرفضون الإيمان بالدين اليهودي ويُحبّذون قَطع الصلات ببقيّة اليهود

الذين اختاروا العيش خارج إسرائيل، رغم قيامها، في سائر أنحاء العالم.

إذا كان الطابع الاستثنائي المميّز لباكستان سيزول فهذا سيُسَبِّبُ أسفاً لدى البَعْض. وسَيَبْقى العالم مجموعة من الدول التي تعيش حياة رتيبةً مُمِلّةً. ومن المؤكد أن القوميّة السطحيّة المُقَلِّدة لقوميّة الغَرْبْ، والتي أغْرَقَتْ بطُوفانِها بلاد المشرق تبدو شيئاً تافهاً لا جاذبية فيه مقارَناً بالطابع المُمَيِّز المسْتَمِرّ للشرق. إلا أن هناك عوامل قويّة تجْتَهِدُ لِتَمْييعِ هذا المذاق الإيديُولُوجيّ العقائدي[1].

obeikandl.com